

ثورة أكتوبر العظمى في ذكرائها الـ 108

دور التكتيك الصائب في تحقيق النصر الاستراتيجي

د. صالح ياسر

تمر هذا العام، 2025، الذكرى الـ 108 لثورة أكتوبر العظمى، الحدث الأهم في القرن العشرين. فقد طبعت بصماتها على الاتجاهات الأساسية لتطور عالمنا خلال القرن العشرين الذي انقضى معظمه في ظل القطبية الثنائية. فالمؤرخ الماركسي البريطاني المرموق الراحل (اريك هوبسباوم) ختم آخر أعماله قبل رحيله بعنوان مثير: "عصر التطرفات"، راسماً صورة القرن العشرين بأنه قرن أكتوبر، القرن القصير الذي ابتداءً، برأيه، متأخراً في 1917، وانتهى مبكراً في 1991، سنة صعود (بوريس يلتسن)، مثلما ان القرن التاسع عشر كان قرن الثورة الفرنسية.

لقد تحدثت عن هذه الثورة في أكثر من مناسبة وتناولتها من زوايا مختلفة، ولا أريد هنا تكرار ما كتبت، لذا سأركز على نقطة واحدة ووحيدة هي دور التكتيك الصائب في تحقيق النصر الاستراتيجي متمثلاً بانتصار ثورة أكتوبر العظمى، وما هي الدروس المستخلصة من هذا الانتصار العظيم.

بعض الملاحظات المنهجية السريعة

نظراً لأننا نتحدث هنا عن دور التكتيك الصائب في تحقيق النصر الاستراتيجي متمثلاً بانتصار ثورة أكتوبر العظمى تقتضي الضرورة المنهجية في البداية الإشارة إلى رؤية الماركسية لأشكال النضال وكيفية اختيار التكتيكات الملموسة طبقاً للوضع الملموس. ويميّز لينين بين الماركسية والمرجعيات الفكرية – السياسية الأخرى في أنها أي الماركسية " لا تربط الحركة بأي شكل وحيد ومحدد للكفاح، فهي تسلم بأساليب النضال الأكثر تنوعاً، وهي لا تختارها، بل تكتفي بتعميمها وتنظيمها وجعل الأشكال النضالية للطبقات الثورية، التي تنبثق عضواً من خلال الحركة ذاتها، أشكالاً واعية " ¹.

ويعني ذلك أن الماركسية:

1. ترفض الصيغ المجردة التي لا تنبع من الواقع أو التي تريد أن تقفز فوقه.
2. وتستنبط أشكال النضال والتكتيكات الملموسة انطلاقاً من حركة الجماهير وطبيعة نضالاتها ومستوى وعيها، التي تنبثق عنها طرائق جديدة دائماً، متنوعة أكثر فأكثر، للدفاع والهجوم كلما تطورت الحركة الجماهيرية وتقدم وعيها واستفحلت الأزمات الاقتصادية – الاجتماعية والسياسية.

ولهذا السبب أكد (لينين) على أن " الماركسية لا ترفض بصورة مطلقة شكل نضالي ما. وهي لا تعترض في أي حال من الأحوال أن تقتصر على الأشكال النضالية الممكنة والموجودة في لحظة معينة، وهي تعترف بأن تغييراً للوضع الاجتماعي سيستتبع حتى ظهور أشكال نضالية جديدة لا يعرفها مناضلو الفترة المعنية بعد. ومن هذه الناحية تتعلم الماركسية، إن صح التعبير، من المدرسة العملية للجماهير، وهي أبعد من أن تدعي إعطاء الدروس للجماهير بعرضها عليها أشكالاً نضالية تصور لها صانعو الأجهزة في غرف عملهم " ².

¹ لينين، الأعمال الكاملة، المجلد 9، ص 215.

² نفس المصدر السابق.

وإذ تؤكد الماركسية على هذه المبادئ المنهجية المتعلقة بأشكال النضال وتكتيكاته الملموسة، فإنها تؤكد في الوقت ذاته على بحث قضية أشكال النضال الملموسة في إطارها التاريخي الملموس. وبهذا الصدد يؤكد (لينين) على أن طرح " هذه المسألة خارج الظروف التاريخية الحسية، يعني جهل ألف باء المادية الديالكتيكية إن محاولة الرد بنعم أو لا حين تطرح مسألة تقييم وسيلة معينة للنضال دون أن تبحث بالتفصيل الظروف الحسية للحركة في درجة التطور التي بلغت، يعني التخلي تماماً عن الصعيد الماركسي " ³.

اعتبر لينين إن اختيار الطبقة العاملة وحزبها هذا الشكل للنضال أو ذاك أهم مسألة للتكتيك. و لا يمكن حل هذه المسألة مسبقاً، في هدوء المكاتب الوثيرة، ولا يعطى الجواب عنها إلا تطور الحركة نفسها و مراعاة الخبرة التي كدستها الجماهير و الظروف الوطنية الملموسة. في حديث له مع (وليم بول) أحد مؤسسي الحزب الشيوعي البريطاني ملخصاً ممارسة المعارك الثورية، قال (لينين): " إن ميدان النشاط الكفاحي هو أفضل مكان لاختبار آرائنا النظرية. والاختبار الحقيقي بالنسبة للشيوعي هو فهمه كيف وأين ومتى يحول ماركسيته الى فعل " ⁴.

ولم يكتف لينين بهذا التحديد بل أضاف إليه أطروحة مهمة أخرى وفحواها ما يلي: " ينبغي لنا أن نتذكر أن كل حركة شعبية تتخذ أشكالاً متنوعة الى ما لا حد له، صانعة على الدوام أشكالاً جديدة، نابذة الأشكال القديمة، محدثة تعديلات أو تركيبات جديدة من الأشكال القديمة والجديدة. وواجبنا أن نشترك بنشاط في هذه الصياغة لأساليب النضال ووسائله " ⁵.

بيّنت تجربة أكتوبر 1917 أن نجاحات النضال من أجل الاشتراكية لا تتوقف على الاختيار الصحيح للاتجاه العام للتقدم الاجتماعي وحده، بل أن ما ينطوي على مغزى كبير، بل وحاسم أحياناً، هو التكتيك الثوري المعتمد في النضال والبحث في أطر هذا الاتجاه العام عن أفضل الطرق والأشكال والواتر لتصعيد النضال وتطويره لتحقيق الأهداف الاستراتيجية.

ومن المفيد الإشارة الى أن هذا البحث صعب بل ومعقد، ذلك لأن تعدد أشكال الحركة نحو الهدف الثوري وتغير ما يظهر من الأوضاع الناجمة عن الخاصية الدولية كبيران جداً.

ثمة إشكاليات عديدة تتعلق بقضية الطرق والتكتيكات المستخدمة لتحقيق الوصول الى الهدف – الاستيلاء على السلطة.

1. أولى هذه الإشكاليات تتعلق بمسألة استخدام ما يسمى بالطريق "المستقيم" أو الطريق "المتعرج" للتطور - حسب تعبير (لينين)- ، اللذين يضع التاريخ أمام القوى المتصارعة تقرير اختيارهما.
- الطريق الأول - نضال الجماهير الثوري المباشر وإبداعها الثوري النشط وهجومها الشامل الموجه نحو الإطاحة بالسلطة القديمة - هو الطريق "الأجدي بالنسبة للشعب، ولكنه يتطلب أكبر قوة أيضاً " ⁶.
- والطريق الثاني هو الطريق "غير المباشر" و "الاضطراري"، حينما لا تكون القوى كافية ولا بد من مساومة مؤقتة.

³ المصدر السابق، ص 216.

⁴ لينين، المؤلفات الكاملة، المجلد 37، موسكو 1970، ص 249.

⁵ لينين، روح المغامرة الثورية، دار التقدم، موسكو 1975، ص 12.

⁶ لينين، المؤلفات الكاملة، المجلد 16، ص 8.

وإذ نظر (لينين) في هذين الشكلين قبل ثورة أكتوبر، نوه بأن " على الماركسي أن يناضل من أجل الطريق الثوري المباشر للتطور، حينما يفرض واقع الأمور الموضوعي هذا النضال " ⁷. وحينما أشار إلى ضرورة مراعاة إمكان الطريق " المتعرج " أيضاً، ركّز على أنه ينبغي في هذه الحالات " معرفة الإخلاص للمبادئ، للطبقة، للمهمة الثورية " ⁸.

إن هذه السياسة المرنة بشكلها، الصلبة والمبدئية بمغزاها الاجتماعي أعطت ثمارها في أكتوبر عام 1917.

2. أما الإشكالية الثانية فتتعلق بالعلاقة بين الطريقين السلمي وغير السلمي للانتقال إلى الاشتراكية. كما تبين كتابات عديدة له، كان (لينين) يسعى إلى البحث عن أقل الوسائل إيلاماً وأكثرها فائدة بالنسبة للجماهير الشعبية من أجل تأكيد النظام الاجتماعي الجديد. ونوه مقتنياً أثر ماركس وأنجلز بأفضلية النهج السلمي، على الرغم من أن مفهوم " السلمي " لا يعني بأي حال من الأحوال حركة بدون نضال طبقي، أي الاقتصار على الأشكال " البرلمانية البحتة ". إن استمرار إمكان تطور الثورة سلمياً الذي اعتبره (لينين) " قيماً للغاية " ⁹، وقد ظهر أكثر من مرة في فترة ما قبل أكتوبر، بما في ذلك ازدواجية السلطة (آذار - حزيران / مارس - يونيو عام 1917)، حينما فقدت البرجوازية وسائل العنف الفعالة وتحقق أقصى حد من الحريات الديمقراطية وتوفر شكل جاهز ممكن لسلطة الشغيلة على شكل السوفيات.

يرتبط ارتباطاً وثيقاً بهذه المسألة المفهوم الذي صاغه (لينين) حول الطريق الثوري - الديمقراطي إلى الاشتراكية. وكان المقصود في هذه الحالة إمكانات التحرك السياسي والاقتصادي على مراحل من التنظيم البيروقراطي البرجوازي - الاحتكاري لمجالات الحياة إلى التنظيم الثوري - الديمقراطي، على قاعدة التقاف الجماهير الشعبية حول المهمات الديمقراطية العامة.

ومن جهة ثانية تنطوي على مغزى تاريخي كبير تجربة أكتوبر المتعلقة بالطريق الآخر، غير السلمي، المسلح للانتقال إلى الاشتراكية. فحينما استنفذت سياسياً إمكانات السلمية لإقامة سلطة السوفيات، دعا (لينين) الحزب البلشفي والجماهير الكادحة إلى الانتفاضة المسلحة. ولم يُقحم لينين هذا الشكل النضالي على الحزب والجماهير، بل أن الجماهير كانت في ذلك الوقت قد اقتنعت من خلال تجربتها السياسية بأنه يستحيل من خلال الإصلاحات الديمقراطية - البرجوازية والاتفاقات مع البرجوازية إيجاد سبيل " أسهل " للخروج من الأزمة البنيوية الشاملة التي كانت تعتمل في مختلف جوانب المجتمع والاقتصاد الروسي آنذاك. لقد وصلت الجماهير الشعبية إلى النضال في سبيل الاشتراكية من خلال النضال في سبيل المطالب الديمقراطية وتلبية حاجاتها المباشرة. وهكذا كانت آلية قيام الجماهير نفسها بالاختيار السياسي للطريق الجديد للتطور الاجتماعي. وجرّت الانتفاضة المسلحة في (بتروغراد) بدون دماء تقريباً بفضل تفوق القوى الثورية.

وفي كتابه الهام: (من هم " أصدقاء الشعب " وكيف يكافحون ضد الاشتراكيين الديمقراطيين؟) لخص (لينين) الموقف من أشكال النضال وتكتيكاته بعبارات بسيطة وواضحة وذات مغزى عميق في الوقت ذاته حين قال: " لا يمكن إعطاء شعار النضال دون دراسة كل شكل من أشكال هذا النضال بكل تفاصيله، ودون تتبع خطوة فخطوة متى ينتقل من شكل إلى شكل آخر، كي نعرف في كل لحظة محددة

⁷ المصدر السابق، المجلد 16، ص 20.

⁸ لينين، المصدر السابق، المجلد 34، ص 133

⁹ المصدر السابق، ص 135

أن نقرر الوضع من دون أن نغفل الطابع العام للنضال وهدفه الإجمالي: القضاء التام والنهائي على كل استغلال وكل اضطهاد " 10.

لقد كانت المهمة الحاسمة هي صياغة برنامج سياسي واضح لكي يمكن ضمان وحدة الغالبية الشعبية وانخراطها في الثورة. وكان من الواجب تقديم مقولات المادية التاريخية والاقتصاد السياسي والاشتراكية العلمية بلغة بسيطة ومفهومة في بلاد كانت تعاني من أمية كبيرة. وقد نجح البلاشفة في إيجاد كلمات بسيطة مفهومة طرحوا من خلالها جوهر المطالب الاجتماعية والديمقراطية ومصالح الجماهير.

وكانت هذه الكلمات بالنسبة لروسيا ذلك العصر هي ثلاث كلمات:

- السلم الذي كانت تتطلع له بلاد عذبتها الحرب ؛
- والخبز الذي كان النقص فيه يؤدي الى مجاعة تطوق عنق البلاد من أدناها الى أقصاها ؛
- والأرض التي لم يكن الفلاحون ليستطيعوا أن يتصوروا العيش بدونها.

ثورة أكتوبر العظمى: بعض الدروس والخلاصات

من المؤكد أننا معنيون بالإفادة من التجربة الطويلة التي أسست لها ثورة أكتوبر بالرغم من مآلها المأساوي، ففيها خبرات غنية وهامة وأساسية في صياغة تصور ممكن لتحقيق الاشتراكية، حلم ثورة أكتوبر وحلم كل الكادحين وبسطاء الناس في مختلف بقاع عالمنا المعاصر.

إن عام 1917 العاصف والمجيد خلق ذخيرة من الخبرة الملموسة ذات المغزى العالمي الشامل وال قابلة للتطبيق. و(لينين) بوصفه ماديا/جدليا/تاريخيا أصرّ على أن يقيم الشيوعيون بعناية الوضع الملموس في بلدانهم المختلفة. ولكنه بالمقابل انتقد بحدّة، أيضا، أولئك الذين سيشرعون بالثورة انطلاقا من "وصفة جاهزة".

نتيح تجربة أكتوبر العظمى استخلاص جملة من الدروس المهمة ومفيدة جدا حتى ونحن نتأمل في انتفاضة تشرين المجيدة في العراق بعد عام من اندلاعها، من بينها:

1. العفوية وحدها لا تكفي بل لا بد من القيام بعمل تحضيري طويل الأمد لقوى المجتمع لتحقيق النصر الاستراتيجي. يستحيل طبعا إنكار القوة الهائلة للعفوية الثورية، فظاهرة العفوية معروفة في الانعطافات الثورية الكبرى. في مثل هذه اللحظات التاريخية يظهر الى السطح باندفاع، انزعاج وغضب الجماهير المستغلة (بفتح الغين) اللذان تراكما وظلا خافتين عشرات السنين. ولكن هذا لوحده لا يكفي. فمن الضروري لتنتصر الثورة، القيام بعمل تحضيري طويل الأمد لقوى المجتمع. وبدون هذا العمل، وبدون إدراك الجماهير لضرورة النضال ضد الحرب وضد الاضطهاد الاجتماعي والقومي ومن اجل العدالة الاجتماعية، لا يمكن تحقيق النصر الاستراتيجي.

2. تجنب أن لا تكون التكتيكات عبئا على الاستراتيجية أو بديلا عنها. لدى النظر في أحد أهم قضايا الثورة، أي التناسب بين الوعي والعفوية، يجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار حقيقة أن انتفاضات الجماهير العفوية التي جرت في شباط/يناير 1917 كانت قد أعدتها بدرجة لا يستهان بها، خبرتها الثورية السابقة وعمل حزب البلاشفة المتفاني بين العمال والجنود والفئات والشرائح الشعبية الأخرى. فعلى الرغم من التكتيل القاسي والملاحقات قام البلاشفة بعمل سياسي نشيط ومنظم في صفوف الجماهير البروليتارية وبين حلفائها. وهنا تكمن أهمية دور التنظيم/الحزب في إكساب

¹⁰ لينين، المصدر السابق، المجلد الأول، ص 356

النشاط العفوي للجماهير طابعا منظما، وتأطيره وتحويله الى قوة مادية هائلة من خلال صياغة تكتيكات مناسبة وبلورة شعارات ملموسة تصب جميعها في تحقيق الهدف الاستراتيجي للمرحلة التاريخية المعنية.

3. لا انتصار بدون قوة منظمة وموجهة ومحرضة، أى بدون الحزب الثوري. لقد أثبتت خبرة ثورة

أكتوبر انه بدون قيادة جماهير الكادحين من جانب الطبقة العاملة وحزبها لم يكن ممكنا تحقيق الثورة الاشتراكية. لقد ألقى التاريخ على عاتق البروليتاريا الروسية بالذات، أكثر الطبقات ثورية حينذاك، مهمة عظيمة وهي قيادة نضال الجماهير في سبيل القضاء على كل أشكال وأنواع الاستغلال الطبقي والاجتماعي والقومي. كانت البروليتاريا في روسيا في عام 1917 متراحة الصفوف بقوة، وقد صلبتها المعارك الطبقيّة وأفعمتها عزمًا على القيام بدور القوة القيادية في الثورة البرجوازية الديمقراطية للوصول بنضال الجماهير الكادحة حتى النصر النهائي، مستفيدة من تردد وصعوبات الحكومة القيصريّة والمعسكر البرجوازي. وضمن لها هذا الدور الحزب الماركسي، الفصيلة الطليعية للطبقة العاملة الروسية المقدمة آنذاك.

4. لم تكن ثورة أكتوبر ذات أهداف طوباوية، كما يزعم البعض من المؤرخين والساسة، بل كانت غاية استيلاء السوفيئات على السلطة تحقيق أهداف ملموسة وواضحة ودقيقة:

- الوقف الفوري للحرب؛
- وتوزيع الأراضي على الفلاحين؛
- وتأمين حق تقرير المصير للقوميات المضطهدة؛
- وتفادي سحق بيتروغراد الحمراء ، الذي أراد كيرنسكي تسليمها للجيش الألماني؛
- ووقف تخريب البرجوازية للاقتصاد، وإقامة الرقابة العمالية على الإنتاج؛
- ومنع انتصار الثورة المضادة.

5. الترباط بين الاشتراكية والسلام. إن الطابع الاشتراكي للدولة السوفيتية الذي دشنته ثورة أكتوبر، قد حدد سياستها المحبة للسلام. وكان "مرسوم السلام" أول وثيقة أصدرتها السلطة السوفيتية في مجال السياسة الخارجية تنهج في ثبات طريق النضال من اجل سلام وحرية وأمن الشعوب.

6. أسفرت مكتسبات الاشتراكية عن ظهور المفاهيم العصرية عن العدالة الاجتماعية وعن حق الإنسان في العمل وفي التعليم والراحة وفي التأمين في حالة الشيخوخة ... الخ.

7. كانت ثورة أكتوبر وموقف كادحي البلدان الأخرى منها نموذجا لقانون آخر هو الأممية البروليتارية، إحدى الوسائل العظيمة لنضال الشعوب في سبيل السلام والديمقراطية والاشتراكية والتقدم الاجتماعي عموما.

8. كما حلّ انعطاف تاريخي على حركة التحرر الوطني، حيث أن اختيار عشرات الدول في آسيا وأفريقيا طريق التطور المستقل، مرتبط ارتباطا وثيقا بثورة أكتوبر، وبناء الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي وظهور النظام الاشتراكي.

9. الرأسمالية ليست الأفق النهائي للبشرية. فبقدر ما كان انهيار التجربة التي انبتت من ثورة أكتوبر قاسيا على قوى التقدم، فإنه أفضى، في مجرى الفترة اللاحقة الى استخلاص مجموعة هامة من الحقائق والعبر، أهمها أن الرأسمالية ليست الأفق النهائي للبشرية. وقد اكدت ذلك الازمات المتتالية التي عاشها دوريا النسق الرأسمالي العالمي بمراكزه وأطرافه، وآخرها الازمة المالية العالمية الاخيرة التي انفجرت في سبتمبر 2008 وما زالت حرائقها مشتعلة.

10. كذلك فإن سقوط مشروع بناء الاشتراكية في بلد او مجموعة بلدان لا يعنى موت الفكرة ذاتها. فقد دللت ثورة أكتوبر على قدرة البشر، الطامحين الى التحرر والعيش في مجتمع مغاير للمجتمع القائم على علاقات الاستغلال، على اجترار الخطوة الصعبة الأولى في هذا الاتجاه.

والسؤال الملح اليوم بعد كل الذي حدث هو: هل يمكن ويجب ان نضل ماركسيين بعد هذا الزلزال الكبير؟

يبدو لي ان هذا السؤال هو في حد ذاته تعبير عن منطق مقلوب. فالسؤال الذي ينبغي ان يسأل هو: هل يمكن ان لا نكون ماركسيين بالنظر الى الاوضاع الراهنة والانهيار الذي حصل؟ وهل هناك بديل تغييري اليوم للماركسية والمشيوع الماركسي؟ هل يمكن ان يكون هناك بديل معقول؟

لتوضيح مغزى هذه الاسئلة لا بد من الاشارة الى ان جوهر الخطأ المتضمن في السؤال يكمن في ربط الماركسية بالاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي: قيامه ومصيره. غير ان المنطق المعمق يقضي بأن تربط الماركسية بتناقضات الرأسمالية. ان الماركسية كفكر وكحركة تاريخية نبعت تاريخيا وتتبع منطقيا من قلب هذه التناقضات الرأسمالية، وما دامت هذه التناقضات موجودة وتتفاقم باستمرار تكون الماركسية اداة لحلها بالنسبة للشيو عيين والماركسيين عموما.

المجد كل المجد لثورة اكتوبر العظمى في ذكراها الـ 108 !